



إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ



إِعْدَادُ:

د. سَيِّدُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْقَيُّمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
عَنِ الْمُعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَحُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» (صحيح البخاري، رقم ٣٠)

إنه الداءُ الخطيرُ، والوباءُ الكبيرُ، إذا شاعَ في أحدِ المجتمعاتِ، نتجَ عنه الكراهيةُ والاختلافاتُ، ولذلك لم يكنِ النبي ﷺ ليرك التَّوجِيهَ وبيانَ الخطأِ في مسألةٍ عظيمةٍ كهذه، حتى لو كانَ الفاعلُ هو من قال فيه عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: "مَا أَقَلَّتِ الْعَبْرَاءُ، وَلَا أَظَلَّتِ الْخُضْرَاءُ، مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ".

فكم نحتاجُ في زماننا هذا أن نقولَ لمن يحتقرُ النَّاسَ ويعيبُ أنسابهم: (إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)، ولكن هل يا ترى سيكونُ له إيمانُ أبي ذرٍّ، فينتفعُ بالذِّكْرِ سائرَ حياته؟!!

وحيثُ إن الطعنَ في الأنسابِ من أمرِ الجاهليَّةِ، فعن أبي مالكٍ الأشعريِّ، حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَرَبُّعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ" (رواه مسلم، برقم ٩٣٤).

فقد حدَّثَ منها في أعظمِ تجمُّعٍ حَدَّثَ فِي زَمَانِهِ وَهُوَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ أَمَامَ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مُسْلِمٍ، حِينَ قَالَ: "أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ" وذكرَ من أمورِ الجاهليَّةِ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبْلَغْتُ؟" قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

ولذلك لو قرأت القرآن كُلَّهُ من أوله إلى آخره ما وجدت أن الله تعالى مدح أحداً بنسبه، وإنما هو التَّقوى والإيمان كما قال تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات: ١٣]، وحين ذكر أوليائه بقوله: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [يونس: ٦٢]، ذكر صفاتهم (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) [يونس: ٦٣]، فمن كان مؤمناً تقيّاً كان لله ولياً .. أيّاً كان حسبُه ونسبُه.

فيا أيُّها الفاخِرُ بالحسبِ، ويا أيُّها الطاعنُ في النَّسبِ، هل أنت من اخترتَ نسبك؟ وهل من تعيبُ عليه قد أُستشيرَ في حسبِه؟ أم أن الله -تعالى- اختارَ لكما ذلك؟ إذاً ففيمَ التَّفاخُرِ والطَّعْنِ فيما اختاره الله وليسَ لك فيه يدٌ؟ بل قد يكونُ من تسخرُ منه خيراً عندَ الله تعالى منك، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الإِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [الحجرات: ١١]، فميزانُ الله -تعالى- هو التَّقوى والإيمان والعملُ الصَّالحُ.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: رَجُلٌ مِّنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِّنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِائَةِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» (صحيح البخاري، برقم ٦٤٤٧)

بل إن احتقارَ النَّاسِ والتَّكبرَ عليهم سنَّةٌ إبليسيَّةٌ قديمةٌ حينَ قالَ له ربُّه سبحانه ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فطردَ من رحمةِ الله تعالى، ولازمته اللعنةُ، وأصبحَ من أهلِ النَّارِ الخالدينَ فيها أبداً، هو ومن كانَ على شاكلته من المتكبرينَ، ولذلك جاءَ في الحديثِ: عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اِحْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، قَالَ: فَفُضِيَ بَيْنَهُمَا، إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ

مَنْ أَشَاءَ، وَلِكَلَّاكُمْ عَلَيَّ مَلُؤَهَا" (مسند أحمد برقم ١١٧٥٣ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب)

وهي طريقة جاهليّة جهلاء بدأت في أول الأمم الكافرة .. حين جاء نوح عليه السّلام لقومه بالحقّ
قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَنزَلُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا نَزَّلَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا
نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ١٢] فكان احتقارهم لأتباع الأنبياء، سبباً للكفر
والدّم والشّقَاء.

ولذلك جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ
الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لِيَدَعَنَّ رِجَالَ فَخْرِهِمْ
بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»
(مسند أحمد ١١٧٥٣، وصححه الألباني في صحيح الترغيب)

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ *** فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ *** وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكَ الشَّرِيفَ أَبَا هَبْ

بل قد جاء الوعيد الشّدِيدُ على من طعن في الأنساب كما قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - «وَمَنْ دَعَا
دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ جُنَّاءُ جَهَنَّمَ». قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «نَعَمْ. وَإِنْ صَامَ
وَصَلَّى، وَلَكِنْ تَسَمَّوْا بِاسْمِ اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ» (سنن أبي داود، برقم ٢٢٩٠٩)
فيا من لا زلت تفتخر بنسبك، انظر إلى عملك، وأين منزلتك من ربك، واجعل نصب عينيك قوله عليه
الصلاة والسلام «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» (صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٩٦٥).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.